البلاغة بين اللفظ والمعنى

« من عصر الجاحظ الى عصر ابن خلدون »

— ٣ —

كتاب الصناعتين : لأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ

يلاحظ على أبي هلال العسكري في كتابه الصناعتين تأثره الشديد بالجاحظ . ويظهر هذا التأثر في كثير من النصوص التي يذكرها والتي ذكرت في البيان والتبيين ، فالمادة قد استقاها في الغالب من الجاحظ ولكنه لم يلجأ الى الاستطراد مثله وانما نظم البحث بعض التنظيم . ويؤخذ عليه اضطرابه في رأيه في البلاغة وفي الجانب الذي يجب عليه أن ينصره من عنصريها الرئيسيين . فقد حار أينصر المعنى أم ينصر اللفظ أم يقول بتكافئهما واشتراكهما في جمال القول ، وهي آراء ثلاثة لم يستقر على واحد منها استقراراً ظاهراً . ويظهر أن الفكرة كانت مبهمة في رأسه أو أن الأمثلة الأدبية التي كانت تعرض له كانت مرنة ، فكان جمال بعضها يرجع الى تلاؤم اللفظ والمعنى وجمال بعضها الآخر يرجع الفضل فيه لأحد الطرفين ، ولهذا كانت حيرة ابي هلال حيرة له بعض الحق فيها لأن قوانين البلاغة والجمال مرنة فقد يطغي جمال الروح على جمال المادة وقد يحصل العكس وكثيراً ما يقع اجتماعهما فيكون الكمال . والمولع بالجمال يتبعه أينما كان وفي أية صورة بدا ، فقد تعشق المرأة لجمال نفسها او لجمال جسمها او لجمال الاثنين معا .

ويحمد له أنه إنما يتناول النقد والبلاغة ـ الممتزجين احدهما بالآخر في دراسته لهما ـ في كتابه ، تناولَ الأديب الناقد الذي يحكم على الأدب بميزان الذوق والفهم الفني فيكثر من الشواهد ويقلّ من القواعد الجافة التي تجمد البلاغة ، ولا يجري على طريقة علماء البلاغة المتأثرين بعلمي الفلسفة والكلام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وليس معنى البلاغة محدوداً واضحاً عند ابي هلال ، وكذلك معنى الفصاحة . ولهذا نراه تارة يقصر البلاغة على المعنى والفصاحة على تمام آلة اللفظ (ص ٧) ، والكلام إنما يكون عنده فصيحا إذا حوى الضخامة والجزالة ، وإذا لم يحوهما لم يسمَّ فصيحا ولو جمع نعوت الجودة ، وإنما يسمى بليغاً . فيكل من الفصاحة والبلاغة في هذا المفهوم غير الاخرى ؛ ونراه تارة أخرى يقول (ص ٨) : « البلاغة كل ما تبلِّغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكُّنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطاً في البلاغة لأن الكلام إذا كانت عبارته رثة ومعرضه خلقاً لم يسمَّ بليغاً وإن كان مفهوم المعنى مكشوف المغزى » ثم يوغل اكثر في اطلاق البلاغة على اللفظ والمعنى معاً فيقول : « إن من شرط البلاغة أن يكون المعنى مفهوماً واللفظ مقبولاً ومن قال إن البلاغة هو إفهام المعنى فقط فقد جعل الفصاحة واللكنة ، والخطأ والصواب ، والإغلاق والإبانة ، سواء . » والبلاغة عنده هي اسم يمدح به الكلام ولا يحمد الكلام ويمدح إذا وفّى المعنى حقه ولم يوف اللفظ فيخلو من التعقيد والاستغلاق ويكون واضحاً سهلاً وقريباً حلواً ويستشهد على هذا بجملة أقوال في البلاغة لمن سبقه من الباحثين ثم نراه (ص ١٢ — ١٤) يورد آيات يفهم منها أن البلاغة عنده قائمة على قوة تلاحم المعاني وسداد الحجة وقوة التعبير عن الفكرة ، وهذه الصفة الأخيرة تشتمل على اللفظ . ويذكر (ص ١٥) أن البلاغة موهبة وليست شيئاً يدرك بالتعلم ، ولكنه يقول إن من تمام آلات البلاغة التوسع في معرفة العربية (ص ١٥) ووجوه الاستعمال لها والعلم بفاخر الألفاظ وساقطها ومتخيرها ورديئها ومعرفة المقامات وما يصلح في كل واحد منها من الكلام ، ثم لا يلبث أن يقول (ص ١٦) إن مدار البلاغة على تخير اللفظ وإن تخيره أصعب من جمعه وتأليفه ، ثم يعود فيذكر رأياً للبحتري مآله أن الفرزدق أشعر من جرير لأنه يتصرف في المعاني فيما لا يتصرف فيه جرير ويورد من شعره

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في كل قصيدة بخلاف ما يورده في الأخرى بخلاف جرير فإنه يكرر، ويفهم من قوله أنه يؤيد البحتري ثم نراه يذكر بعد ذلك رأيه في أن البلاغة أن يكون في مقدرة صائغ الكلام أن يأتي بالجزل مرة وبالسهل أخرى ويلين إذا شاء ويشتد إذا أراد ويمثل لذلك ببيتين لجرير .

ينتقل من هذا إلى ذكر آراء السابقين في البلاغة فيذكر رأي الهندي في البلاغة ويفاد منه أن البلاغة يجب أن تعنى بالألفاظ وبالمعاني إلى جانب غيرهما من الشروط وقد ذكرته سابقاً ويذكر بعد ذلك رأي العربي في البلاغة (ص ٣٤) وخلاصته أن البلاغة تتحقق في تقريب المعنى وإيضاحه وفي الايجاز وحسن الاستعارة، ويورد لابن المقفع (ص ٣٨) هذا التعريف : «البلاغة كشف ما أغمض من الحق وتصوير الحق في صورة الباطل»، وهذا ليس تعريفاً لها وإنما هو وصف اثر من آثارها في النفوس، ويصف الكلام الجميل (ص ٣٩ — ٤١) بكلام طويل يفيد أن البلاغة فيه إنما تتحقق بحسن أداء المعنى وجمال اللفظ وكمال التأليف وجودة الأقسام وحسن الموسيقى واحتوائه على الرونق والطلاوة .

ولا ننتهي من هذا حتى نرى ابا هلال يحمل على المعاني وينكر أن يكون لها شأن في بلاغة الكلام فيقول (ص ٤٢) : « وليس الشأن في إيراد المعاني .... لأن المعاني يعرضها العربي والعجمي والقروي والبدوي وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من اود النظم والتأليف وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت ... » ويستدل على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ بأن الخطب الرائعة يمكن أن تؤدي معناها بتبديل الفاظها بألفاظ رديئة فهي لم تعمل لافهام المعاني، وإنما يدل حسن الكلام وإحكام صنعته ورونق الفاظه وجودة مطالعه وحسن مقاطعه وبديع مباديه وغريب مبانيه على فضل قائله واكثر هذه الأوصاف ترجع الى الألفاظ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

دون المعاني ، ويسوق دليلاً على رأيه ايضاً أن موضع عناية الكاتب والشاعر والخطيب هو الألفاظ دون المعاني ويسوق دليلاً آخر هو ان الكلام اذا حسن لفظه وكان معناه وسطا دخل في جملة الجيد وضرب مثالاً على ذلك الأبيات الثلاثة التي سبقه إلى ذكرها ابن قتيبة وهي : « ولما قضينا من منى كل حاجة ... الخ » وقد مضى القول فيها ، وهو يقول إنه ليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى وهنا يقصد بالمعنى ما كان يقصده ابن قتيبة لما تعرّض لهذه الأبيات وغفل عن كبير معناها الذي سينبه اليه بالتفصيل عبد القاهر الجرجاني . ثم يقول إن المعنى إذا كان صواباً لا يرفع من قيمة الكلام إذا كان لفظه بارداً فاترا ، ويسوق مثالاً عليه شعرا رديئاً لعمرو بن معدي كرب ويعلق عليه بقوله (ص ٤٣) : « والشعر كلام منسوج ولفظ منظوم واحسنه ما تلاءم نسجه ولم يسخف وحسن نظمه ولم يهجن ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفاً بغيضاً ولا السوقيّ من الألفاظ فيكون مهلهلاً دونا » ثم يمثل للشعر البغيض بشعر رديء لأبي تمام .

ويدعوه هذا إلى الكلام في قبح التكلف فيقول إن الكلام لا خير فيه إلا إذا وضح معناه وحسن وأجيد لفظه ، وينتقد بشدّة (ص ٤٤) من يبهمون المعاني ويخشنون الألفاظ جريا وراء الصنعة والتكلف ، وربما كان يقصد مدرسة ابي تمام ، ويقول إن السهل امنع جانبا واعز مطلبا ولهذا قيل : « أجود الكلام السهل الممتنع » ويقول إنه لا خير ايضاً في الشعر الذي يسهل لفظه ويكون معناه مكشوفاً بينا فهو من جملة الرديء المردود ويمثل في جملة ما يمثل به للشعر السهل الممتنع بقول البحتري :

« ايها العاتب الذي ليس يرضى ثم هنيئاً فلست أطعم غمضا »

« إن لي من هواك وجدا قد استهـــلك نومي ، ومضجعي قد أقضّا »

ويعود العسكري (ص ٥٠) الى نصرة الألفاظ فيقول إن تمييزها ووضعها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في مواضعها امر شديد ويروي عن الصولي ان رجلاً انشد ابن هرمة قوله :

« بالله ربك إن دخلت فقل لها هذا ابن هرمة قائما بالباب »

فقال ما كذا قلت أكنت اتصدق فقال « فقاعدا » ... قال أكنت أبول قال فماذا قال « واقفا » ليتك علمت ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى . ولا يبقى ابو هلال محافظا على رأيه في تفضيل اللفظ في بقية كتابه بل يعود فيشركه في الفضل مع المعنى بل يرجح المعنى على اللفظ بعض الشيء فيقول (ص ٥١) إن صاحب البلاغة يحتاج إلى « إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ لأن المدار بعد على إصابة المعنى ولأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان والألفاظ معها تجري مجرى الكسوة ومرتبة إحداهما على الأخرى معروفة ... » ويجعل فكر الأديب اذا هو فكّر ، فكراً في ترتيب المعاني لا ترتيب الألفاظ فيقول (ص ٥١) « ومن عرف ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ... » إلى ان يقول : « فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال » ويقسم المعاني بعد ذلك إلى ضربين : ضرب يبتدعه الأديب وضرب يحتذي به مثالا تقدم . ويلزم الأديب ان يطلب الإحسان في جميع ذلك ويتوخى فيه الصورة المقبولة والعبارة المستحسنة . ويشرح بعد ذلك مراتب المعاني وانواعها من حيث الخطأ والصواب ويقول إنه إنما نبّه على مواقع الخطأ لتجتنب وعلى مواقع الصواب فتعتمد . ويخلص العسكري من هذا الى نقد معان وتشابيه اخطأ الشعراء في ايرادها ويأباها الذوق السليم كما يأباها المنطق الحكيم وينعى على الأدباء استعمالهم معاني في مقامات لا تناسبها والفاظاً لم توضع في محلها وأن يريد الأديب معنى فيدل كلامه على غيره ، واستعمال الفاظ لا تستعمل إلا في مواضع ومناسبات خاصة في غير هذه المواضع والمناسبات ، وارتكاب اخطاء في اللفظ لضرورات الشعر وقرن لفظة بأخرى لم يقض العرف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

باقترانها، ويجعل من القرآن ميزانا لحسن وضع الكلمات مواضعها - ويعيب العسكري على بعض الشعراء ان يخرجوا في عواطفهم عن المألوف كأن يذكروا تجلدهم على هجر من يحبون، وهذا طريف لم يتعرض له من سبق الكلام عليه من المؤلفين .

ويعود العسكري بمناسبة نصيحته لمن يريد ان يصنع كلاماً الى الحديث عن اللفظ والمعنى فيسوّي بينهما ويقول (ص ١٠٠) «واذا اردت ان تصنع كلاماً فأخطر معانيه بقلبك وتنوّق له كرائم اللفظ واجعلها على ذكر منك ليقرب منك تناولها ولا يتعبك تطلبها» ويورد بعد هذا الكلام قسما من صحيفة بشر بن المعتمر (ص ١٠١) التي تحدثنا عنها سابقاً اثناء الكلام على الجاحظ ويورد كلام الجاحظ في نصيحته الى الكتاب وفي غيرها، مما يريد ان يؤيد به ضرورة اختيار اللفظ الكريم للمعنى الكريم ويذكر كلاماً رواه الجاحظ في البيان والتبيين وهو في ضرورة مناسبة المقال للمقام .

ولا ينسى العسكري ان ينبه (ص١٠٣) على ان طبيعة الشعر غير طبيعة الرسائل والخطب وانه يني اكثره على الكذب والاستحالة من الألفاظ الممتنعة وانه لا يراد منه إلا حسن اللفظ وجودة المعنى وهذا هو الذي سوغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه ويقول إن مما يميزه النظم الذي به زنة الألفاظ وتمام حسنها، وليس شيء من اصناف المنظومات يبلغ في قوة اللفظ منزلة الشعر . ومن اجل ما يقرره العسكري في ميزات الشعر اتصاله الوثيق بالموسيقى واثر موسيقاه في النفس فيقول (ص ١٢٣) : «ومما يفضل به الشعر ان الالحان التي هي اهنى اللذات إذ سمعها ذوو القرائح الصافية والأنفس اللطيفة لا تتهيأ صفتها إلا على كل منظوم من الشعر فهو لها بمنزلة المادة القابلة لصورها الشريفة إلا ضربا من الألحان الفارسية تصاغ على كلام غير منظوم نظم الشعر تمطط فيه الألفاظ فالألحان منظومة والألفاظ منثورة» .

بعد هذا تأتي (ص ١٠٤) نصيحة العسكري الى من يريد ان يعمل شعرا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بأن يستحضر المعاني في الفكر والقلب وأن يحسن اختيار الوزن والقافية فبعض المعاني لا يمكن ، او لا يسهل ، نظمه إلا في قافية دون غيرها ، وأن يتجنب التكلف والتعقيد ويهذب القصيدة وينقحها بعد الانتهاء منها وأن يعدل ويوازن بين اجزائها وأن يحسن اختيار الألفاظ وسبك الكلام وتكون الحروف سهلة المخارج وأن يراعى المقام من حيث الايجاز والاطناب وأن يكون الكلام متصل المعاني تنبئ موارده عن مصادره .

ونصيحة العسكري لا تقدم ولا تؤخر في قول الشعر إلا بمقدار ما تقدم وتؤخر دراسة فن العروض بصورة نظرية بل ربما كانت هذه أجدى ، وخير من هذه القواعد كثرة مدارسة الشعر . ويقدم أبو هلال بعد نصيحته أمثلة للشعر الحسن وأمثلة للردي، الذي يبرأ فيه صدر البيت من عجزه ويتكلم (ص ١١١) في صفات الألفاظ الجيدة فيقول ينبغي ان لا تكون وحشية بدوية ولا مبتذلة سوقية ولا مخالفة للقياس ، والتنكير يحسن احيانا ويقبح أخرى ، وكذلك التعريف ، وينبغي تجنب ارتكاب ضرورات الشعر وأن لا يلجأ الى كثرة اللفظ في تأكيد الكلام بل إلى أن يكون نظمه على صورة مخصوصة .

ويتحدث بعد ذلك (ص ١٢٠) عن أهمية نظم الكلام في حسنه فيقول إنه يزيد المعنى وضوحاً وإن الكلام يسوء إذا كان سيئاً ولو كان المعنى حسناً وإن طلاوة الكلام تزداد إذا حسن ولو كان المعنى وسطا ويشبه نظم الكلام بنظم العقد إنما يكون حسنه بحسن اختيار الحبات وضم كل حبة الى اختها وأن لا يعدل به عن وجوه التركيب المقررة فيقدم ويؤخر أو يحذف أو يزاد فيه إلا لفائدة ، وذكر قول المتنبي بأن الألفاظ اجساد والمعاني ارواح وإنما تراها بعيون القلوب فكما تفسد الروح والصورة بفساد الخلقة وتغيير أصل خلقتها القويمة كذلك يفسد المعنى بفساد التركيب وقال إنّ من سوء النظم المعاظلة ومخالفة وجه الاستعمال وتناول المعنى من بعيد ، وإنّ من تمام حسن الوصف أن يكون مخرج الكلام ذا طلاوة وماء (ص ١٢٨) وخاليا من التكلف والصنعة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكلمة طلاوة وماء هنا لها قيمتها لأنها إنما تعني أن يكون في الجملة حياة فكأنها تنطق وهي لا تكون كذلك إلا إذا كانت تحسن التعبير عن العاطفة وقد يكون المؤلف أراد بهذين اللفظتين ما ذهبت اليه وقد أكون مبالغا . ومن الغريب أن ابا هلال العسكري يبقى متردداً بين اللفظ والمعنى في إعطائه الأسبقية لأحدهما بعد كل ما سبق فيعود في (ص ١٤٦) الى القول بأنه لاشأن للمعاني لأنها مشتركة بين العقلاء وبأن الناس انما يتفاضلون في الألفاظ ورصفها ثم يقسم الفضيلة بين اللفظ والمعنى في باب الفصل والوصل (ص ٣٥٣) فيقول : « وقلما رأينا بليغا الا وهو يقطع كلامه على معنى بديع او لفظ حسن رشيق . »

وبعد عرض ما يتعلق بالموضوع من آراء العسكري المتفرقة في تضاعيف كتابه ألخص ملاحظاتي عليه بأنه لم يحدّد معنى الفصاحة ولا معنى البلاغة تحديدا نهائيا بل تركهما عرضة للمدّ والجزر كما أنه بقي متردداً بين تفضيل اللفظ حينا ومساواته بالمعنى حيناً ومناصرة جانب المعنى نوعاً ما حيناً آخر وهذا التردد دليل على أنه كان يشعر بأهمية كل منهما . على أن من المهم أكثر في الموضوع شعوره بعظم شأن تركيب الكلام ، ولكنه تردد أيضاً في موضوع التركيب هل هو ترتيب المعاني في النفس او ترتيب الألفاظ في النطق ، وقد أخذ بهذا حيناً وبذلك حيناً آخر كما اشرت الى ذلك في موضعه ولم يغفل الحديث عن أثر الموسيقى وانتخاب الألفاظ في الشعر فوفّاهما حقّهما بالنسبة الى مفهوم عصره كما أشار الى ناحية العاطفة في الشعر وما يجب على الشاعر من مسايرة للمألوف في إظهار عاطفته ولكن باختصار يقارب الإخلال . ومفهوم البلاغة عنده كمفاهيم من سبقوه ينقصه أثر العاطفة في الكلام وأثر الخيال في إبراز الفكرة العامة ثم لم يخرج تصوره لميدان البلاغة عن ميدان الجملة القصيرة والبيت من الشعر إلى ميدان القصيدة الكاملة والموضوع الكامل في النثر ، ليخطط لها الطريقة التي يكفل اتباعها بان يحوزا صفة الجمال وبالتالي صفة البلاغة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كتاب العمدة : لابن رشيق

« أبي علي بن الحسن بن رشيق » المتوفى سنة ٤٦٣ هـ

يمتاز ابن رشيق من بين المؤلفين الذين تكلمت عنهم حتى الآن بأنه لم يقع في الاضطراب والحيرة بين رأيين مختلفين ، بل هو يأخذ بوضوح جانبا معينا فيناصره ، ثم يظهر عليه أن الفكر التي يتناولها بالكتابة واضحة في ذهنه ، ويظهر عليه أنه أحسنُ تنظيما وتبويبا لبحثه فلا يستطرد ولا يكرر معنى تكلم فيه قبل كما أنه اكثرهم فهما ونضجا وهو يكثر من الرواية وجمع الأخبار ولكنه حسن الدراسة والاستنتاج وربما كان فهمه لمعنى البلاغة اقرب أفهام المؤلفين السابقين الى فهمنا لها بمعنى أنها الجمال في القول وبما تألف منه هذا الجمال من عناصر وقد اورد في باب تعريف البلاغة أقوالاً عدة في حدها منها : (ص ١٦٣) « وقالوا لا يكون الكلام يستوجب اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ولا يكون لفظه أسبق الى سمعك من معناه الى قلبك » ونجد هذا القول في جملة ما سبق من اقوال في كتاب البيان والتبيين للجاحظ . واورد بعد هذا القول كلاماً مؤداها أن البلاغة في الايجاز وفي حسن اللفظ مع جمال المعنى ، ثم يذكر عدة اقوال ذكرها الجاحظ قبله في البيان والتبيين ثم يذكر (ص ١٦٤) تعريفاً لبعض المحدثين وهو : « البلاغة إحداء المعنى الى القلب في احسن صورة من اللفظ » واخيراً يلخص هذا الباب (ص ١٦٦) بأن مداره كله على أن « البلاغة وضع الكلام موضعه من طول او ايجاز على حسن العبارة » ويقول : « ومن جيد ما حفظته قول بعضهم : البلاغة شدُّ الكلام معانيه وان قصر وحسن التأليف وان طال » ولا يكفي ما سبق لبيان مقدار فهم ابن رشيق لمدلول البلاغة فقد كان تلخيصه لها دون إدراكها وتذوقها ولهذا نرجع الى كلامه في الشعر ونظراته النقدية التي تظهرنا على درجة فهمه للجمال الفني لنكون عنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فكرة صحيحة فهو يقول (ص ٧٤) : « وإنما سمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر له غيره فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه او استظراف لفظ وابتداعه او زيادة فيما اجحف فيه غيره من المعاني او نقص مما اطاله سواه من الألفاظ او صرف معنى الى وجه عن وجه آخر كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ولم يكن له الا فضل الوزن وليس بفضل عندي مع التقصير » . ومطلع هذا القول سبقه اليه صاحب كتاب نقد النثر ولكنه أكمله بضرورة حصول الابتكار والتجديد عند الشاعر ليسمى شاعرا ولم يبق هذه التسمية مبهمة بلا تفصيل كما فعل صاحب نقد النثر ثم يزيدنا ابن رشيق اعجابا به في تقريره حقيقة جميلة غابت كثيراً عن علماء البلاغة المنطقيين وهي أن ادراك جمال القول انما يكون بالذوق لا بعلم وقواعد وهذا الذوق ينشأ من كثرة المدارسة التي تنضاف الى الموهبة الخاصة ، وهو يعبر عن رأيه هذا تعبيرا جميلا ص ٧٦ اذ يقول : « قال الجمحي وللشعر صناعة وثقافة يعرفها اهل العلم كسائر اصناف العلم والصناعات منها ما تثقفه العين ومنها ما تثقفه الآذان ومنها ما يثقفه اللسان .... ويقال للرجل والمرأة في القراءة والغناء انه لندي الحلق حسن الصوت طويل النفس مصيب اللحن وتوصف الأخرى والأخرى بهذه الصفة وبينهما بون بعيد ، يعرف ذلك اهل العلم به عند المعاينة والاستماع بلا صفة ينتهي اليها ولا علم يوقف عليه وان كثرة المدارسة للشيء لتعين على العلم به ، وكذلك الشعر يعرفه اهل العلم به ؛ وسمعت بعض الحذاق يقول : ليس للجودة من الشعر صفة انما هو شيء يقع في النفس عند المميِّز كالفرند في السيف والملاحة في الوجه وهذا راجع الى قول الجمحي بل هو عينه وانما فيه فضل الاختصار » .

ولم يهمل أثر العاطفة في قول الشعر وفي تكوين جماله فقال (ص ٣٧) : « بني الشعر على اربعة اركان وهي المدح والهجاء والنسيب والرثاء . وقالوا قواعد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشعر اربعة : الرغبة والرهبة والطرب والغضب » وذكر (ص ٧٨) أن عبد الملك ابن مروان قال لأرطأة بن سهية أتقول الشعر اليوم فقال والله ما اطرب ولا اغضب ولا اشرب ولا ارغب وإنما يجيء الشعر عند احداهن .

وحديثه هذا عن العاطفة موجز لا يغني ولا يسمن من جوع ولا يفسر إلا ما يحرك الى قول الشعر ولم يبين أثر هذه العاطفة او شدة هذه العاطفة في شعر شاعر ولكن هذا على كل حال يطلعنا على أنه كان يدرك الرابطة الشديدة بين الشعر وبين العواطف الانسانية . وقد وضح ابن رشيق هذه الرابطة وحسن ادراكه لها في تعريفه ماهية الشعر الحقيقي اذ يقول ص ٨٣ « وانما الشعر ما اطرب وهز النفوس وحرك الطباع فهذا هو باب الشعر الذي وضع له وبني عليه لا ماسواه . » ويشبه البيت من الشعر بالبيت من الأبنية (ص ٧٨) : « فقراره الطبع وسمكه الرواية ودعائمه العلم وبابه الدربة وساكنه المعنى ولا خير في بيت غير مسكون وصارت الأعاريض والقوافي كالموازين والأمثلة للأبنية وكالأواخي والأوتاد للأخبية فأما ما سوى ذلك من محاسن الشعر فإنما هو زينة مستأنفة ولو لم تكن لاستغني عنها » ثم يقول ص ٧٩ : « قال غير واحد من العلماء : الشعر ما اشتمل على المثل السائر والاستعارة الرائعة والتشبيه الرائع وما سوى ذلك فانما لقائله فضل الوزن .

ويعتقد ابن رشيق بنظرية صحيحة لمح اليها الجاحظ قبله تلميحاً خفيفاً وهي أن لكل فريق من الأدباء الفاظاً خاصة بهم فيقول (ص ٨٣) : « وللشعراء الفاظ معروفة وامثلة مألوفة ولا ينبغي للشاعر أن يعدوها ولا أن يستعمل غيرها كما ان الكتاب اصطلحوا على الفاظ بأعيانها سموها الكنايية لا يتجاوزونها الى سواها الا أن يريد شاعر ان يتظرف باستعمال لفظ اعجمي فيستعمله في الندرة وعلى سبيل الخطرة كما فعل الأعشى قديماً وابو نواس حديثاً فلا بأس بذلك . والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر فإن وقع فيه شيء منها فبقدر ولا يجب أن يجعلا نصب العين فيكونا متكأ واستراحة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا يغفل ابن رشيق عن ضرورة السبك الجيد في الشعر لتتوفر فيه البلاغة والجمال فيروي (ص ١٧١) كلام الجاحظ الذي يتلخص في أن أجود الشعر ما كان حسن السبك من حيث تلاؤم الكلمات والحروف في النطق وتأدية المعاني ويعلق عليه بأنه يلذ حينئذ سماعه ويخف محمله ويقرب فهمه ويعذب النطق به حتى كأن البيت كله لفظة واحدة واللفظة كأنها حرف واحد وبعكس ذلك يكون الكلام المتنافر .

ثم يذكر اختلاف الرأي في مزاوجة الألفاظ وأن من الناس من يقرن الكلمة وأختها ومنهم من يقابل لفظتين بلفظتين ومن الشعراء من يضع كل لفظة موضعها لا يعدوه فيكون كلامه واضحا ومنهم من يقدم أو يؤخر إما لضرورة وزن او قافية وهو أعذر وإما ليدل على أنه يعلم تعريف الكلام ويقدر على تعقيده وهذا هو العيّ بعينه وكذلك استعمال الغرائب والشذوذ التي يقل مثلها في الكلام فقد عيب على من لا تعلق به التهمة . وهو يسوق أمثلة على هذا كله .

ويتكلم عن عيوب الشعر التي يجب اجتنابها فيذكر منها تقارب الحروف أو تكررها والمماثلة ويقول : «ومن الناس من يستحسن الشعر مبنياً بعضه على بعض وانا أستحسن ان يكون كل بيت قائماً بنفسه لا يحتاج الى ما قبله ولا الى ما بعده وما سوى ذلك فهو عندي تقصير الا في مواضع معروفة مثل الحكايات وما شاكلها ، فإن بناء اللفظ على اللفظ أجود هنالك من جهة السرد» .

ونحن نستطيع أن نضمّ جزءاً الى جزء من الأقوال السابقة لنؤلف في أذهاننا من هذه الأجزاء صورة كاملة للبلاغة بمعنى الجمال في القول كما كان يفهمها ابن رشيق وهي صورة تقرب من أن تكون كاملة العناصر كالتي نقول بها الآن ففيها المعنى وفيها اللفظ والأسلوب (بما عبر عنه من سبك وتأليف) وفيها العاطفة وفيها الخيال (بما اشترطه في الشعر من ضرورة احتوائه على الاستعارة الجميلة والتشبيه الرائع) فضلا عما تضمنت أفكار ابن رشيق السابقة من نظرات صادقة في تذوق الأدب وحسن فهمه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولم يتعرض ابن رشيق لعملية النظم نفسها وفلسفتها ـ إن صح هذا القول ـ من حيث الاختلاف في النظم أهو في ترتيب الألفاظ بحذف النظر عن دلالتها أم في ترتيب المعاني في النفس .

ولكنه لم يهمل الكلام في نسبة قيمة اللفظ وقيمة المعنى ومقدار اشتراك كل منهما في تكوين جمال القول فقال (ص ٨٠) : « اللفظ جسم وروحه المعنى وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه ويقوى بقوته » ويذكر أن ضعف كل منهما يؤثر في الآخر ولا قيمة لأحدهما بدون الآخر وأن للناس فيهما آراء ومذاهب : منهم من يؤثرون اللفظ على المعنى وهؤلاء فرق فرقة تؤثر فخامة الكلام وجزالته على مذهب العرب من غير تصنع كقول بشار :

(اذا ما غضبنا غضبةً مضريةً هتكنا حجاب الشمس او قطرت دما)

ويقول ان هذا النوع أدلّ على القوة وأشبه بما وقع فيه من موضع الاختيار وفرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى الا القليل النادر ، كأبي القاسم بن هانئ[1] ومن جرى مجراه فإنه يقول أول مذهبته :

أصاخت فقالت وقع أجرد شيظم وشامت فقالت لمع أبيض مخذم

وما ذعرت إلا لجرس حليها ولا رمقت إلا بُرَى في مخدَّم

وليس تحت هذا كله الا الفساد ويذكر أن أبا القاسم هذا يحسن حين يترك نفسه على سجيتها ويرذل شعره اذا تكلف ويقول ان من جيد شعره المطبوع في هذا المذهب قوله :

لا يأكل السرحان شلو عقيرهم مما عليه من القنا المتكسر

وفرقة ذهبت الى سهولة اللفظ فمنيت بها واغتفر لها فيها الركاكة واللين المفرط كأبي العتاهية والعباس بن الأحنف ومن تابعهما وهم يرون الغاية في هذا المذهب قصيدة ابي العتاهية التي مطلعها :

(١) هو ابن هانيء الأندلسي الشاعر المشهور الذي لقب بمتنبي المغرب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

«يا إخوتي ان الهوى قاتلي فسيروا الأكفان من عاجل»

ثم يقول ابن رشيق : «ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ولا يبالي حيث وقع من سخنة اللفظ وقبحه وخشونته كابن الرومي وابي الطيب ومن شاكلهما. هؤلاء المطبوعون فأما المتصنعون فسيرد عليك ذكرهم». ثم يقول ان أكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى لأن المعاني في رأيهم موجودة في طباع الناس ولكن العمل على جودة الألفاظ وحسن السبك وصحة التأليف وأن في متناول أي انسان أن يصف الشجاع بالأسد والكريم بالغيث والحسن بالشمس .... ولكن العبرة في تركيب هذه المعاني في أحسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة والحلاوة وبدون ذلك لا يكون له قدر ثم يذكر اقوالاً وتشابيه كثيرة يوردها لمن يفضلون اللفظ على المعنى ولا حاجة لذكرها.

ويفهم من مجموع أقواله أن مذهبه هو ان اللفظ والمعنى متكافئان تجب العناية بكل منهما ليتوفر الجمال بالكلام ومما يؤيده قوله : «ومن ملح الكلام على اللفظ والمعنى ما حكاه ابو منصور عبد الملك بن اسماعيل الثعالبي قال : البليغ من يحوك الكلام على حسب الأماني ويخيط الألفاظ على قدود المعاني.» كما يفهم ان اللفظ عنده يشمل عناصر الخيال والعاطفة والأسلوب والمعاني الجزئية التي تتساوق لتأدية المعنى الكلي، وأن المعنى يقتصر عنده على المعاني والأفكار الأساسية كمعاني الشجاعة والكرم والعفة ويتضمن التشبيهات المشهورة التي يطلق عليها اسم المعاني كتشبيه الشجاع بالأسد والكريم بالغيث والحسن بالشمس، فندرك أنه حين ينصر اللفظ انما ينصر معه عناصر كثيرة نرجعها نحن في اصطلاحنا الى المعنى.

(يتبع) نعيم الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net